***ظاهرة التصوف***

***بحث فى : بقية الفرق المنتسبه للاسلام***

***إعداد / منة الله مجدى بهجت***

***قسم الدعوة وأصول الدين***

***كلية العلوم الإسلامية – جامعة المدينة العالمية***

***شاه علم - ماليزيا***

*Menna.Magdy@mediu.ws*

**خلاصة هذا البحث فى : *ظاهرة التصوف نظرة تاريخية***

**الكلمات الافتتاحيه : تاريخيه، التصوف، نظره**

* **.*المقدمة***

**الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين ، سوف نقوم في هذا البحث بمعرفة *ظاهرة التصوف نظرة تاريخية***

* ***.عنوان المقالة***

لم يعرف على وجه التحديد من بدأ التصوف في الأمة الإسلامية، ومن هو أول متصوف، وإن كان الإمام الشافعي > عندما دخل مصر قال: "تركت بغداد، وقد أحدث الزنادقة فيها شيئًا يسمونه السماع" والزنادقة الذين عناهم الشافعي هنا هم المتصوفة، والسماع هو الغناء والمواجيد، والمواويل التي ينشدونها، ومعلوم أن الشافعي دخل مصر سنة "مائة وتسعة وتسعين" من الهجرة، وكلمة الشافعي توحي بأن قضية السماع هذه قضية جديدة، ولكن أمر هؤلاء الزنادقة يبدو أنه كان معلومًا قبل ذلك؛ بدليل أن الشافعي قال كلام كثيرًا عنهم، كقوله مثلًا: "لو أن رجلًا تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يكون أحمق"، وقال أيضًا: "ما لزم أحد الصوفية أربعين يومًا، فعاد إليه عقله أبدًا".

وكل هذا يدل على أنه قد كان هناك قبل نهاية القرن الثاني الهجري، فرقة معلومة عند علماء الإسلام يسمونهم أحيانًا بالزنادقة، وأحيانًا بالمتصوفة.

وأما الإمام أحمد، فقد كان معاصرًا للشافعي وتلميذًا له في أول الأمر، فقد أُثر عنه أقوال كثيرة في التنفير من أفراد معينين نسبوا إلى التصوف، كقوله في رجل جاء يستفتيه في كلام الحارث المحاسبي، قال أحمد بن حنبل: "لا أرى لك أن تجالسهم، وذلك بعد أن اطلع أحمد بن حنبل على مجالسهم، التي كانوا يجلسون فيها للبكاء، ومحاسبة النفس كما يزعمون، والكلام على الوساوس وخطرات القلوب، فلما اطلع أحمد على ذلك قال لسائله محذرًا إياه من مجالستهم وكتبهم: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات".

والذي يبدو أن الإمام أحمد بن حنبل > قال هذا الكلام في مطلع القرن الثالث، ولكن هذا القرن ما كاد يكتمل حتى ظهر التصوف على حقيقته، وانتشر في الأمة انتشارًا ذريعًا، واستطاع المتصوفة أن يظهروا ما كانوا يخفونه سابقًا، والمطلع على الحركة الصوفية من أول نشأتها إلى حين ظهورها العلني على ذلك النحو، يجد أن أساطين الفكر الصوفي -جميعهم بلا استثناء في القرن الثالث، والرابع الهجريين- كانوا من الفُرس، ولم يكن فيهم عربي قط، وعند مقابلة الدين الصوفي ستجد أن التصوف هو الوجه الآخر للتشيع، وأن أهداف التصوف والتشيع كانت واحدة تقريبًا في السياسية والدين.

والمهم هنا هو التذكير بأن التصوف بلغ غايته وذروته من حيث العقيدة والتشريع في نهاية القرن الثالث؛ حيث استطاع الحسين بن منصور الحلاج أن يظهر معتقده على الملأ، ولذلك أفتى علماء العصر بكفره وقتله، فقتل سنة "ثلاث مائة وتسعة" هجرية، وصلب على جسر بغداد، وسئل الصوفية الآخرون فلم يُظْهِروا ما أظهر الحلاج.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الصوفية ظلت تواصل انتشارها في أرض فارس على الخصوص ثم في العراق، وساعد على انتشارها في فارس أن أقام رجل يسمى أبو سعيد الميهني نظامًا خاصًّا للخانات، الذي أصبح فيما بعد مركزًا للصوفية، وقلده في ذلك عامة رجال التصوف، ومن هنا نشأت في منتصف القرن الرابع الهجري بدايات الطرق الصوفية، التي سرعان ما انتشرت في العراق ومصر والمغرب، وفي القرن السادس ظهرت مجموعة من رجال التصوف، كل منهم يزعم أنه من نسل الرسول واستطاع كل منهم أن يقيم له طريقة صوفية خاصة، وأتباعًا مخصوصين، فظهر الرفاعي في العراق، والبدوي في مصر وأصله من المغرب، ولم يعرف له أم، ولا أب، ولا أسرة، ولا هو من المغرب.

وكذلك الشاذلي في مصر، وأصله كذلك من المغرب، وتتابع ظهور الطرق الصوفية التي تفرعت من هذه الطرق، وفي القرون السادسة، والسابعة، والثامنة بلغت الفتنة الصوفية أقصاها، وأنشئت فرق خاصة بالدراويش، وظهر المجاذيب، وبنيت القباب على القبور في كل ناحية، وذلك بقيام الدولة العُبَيْدية المسماة بالفاطمية في مصر، مع بسط سيطرتها على أقاليم واسعة من العالم الإسلامي، وبنائها للمزارات والقبور المفتراة، كقبر الحسين بن علي { في مصر، وقبر السيدة زينب، وإقامتهم بعد ذلك الموالد والبدع، والخرافات الكثيرة، وتأليههم في النهاية للحاكم بأمر الله الفاطمي.

لقد بدأت الدعوة الفاطمية بالمغرب؛ لتكون بديلًا للحكم العباسي السُّني، واستطاعت هذه الدولة تجنيد هذه الفرق الصوفية، وغزو العالم الإسلامي بهذه الجيوش الباطنية التي كان لها أعظم الأثر بعد ذلك في تمكين الجيوش الصليبية من أرض الإسلام، وأخيرًا عم الخطب، وطم في القرون المتأخرة التاسع، والعاشر، والحادي عشر؛ إذ ظهرت آلاف الطرق الصوفية، وانتشرت العقيدة والشريعة الصوفية في الأمة، واستمر ذلك إلى عصر النهضة الإسلامية الحديثة.

 لقد بدأت طلائع هذه النهضة، ومقدماتها في آخر القرن السابع وبداية القرن الثامن، على يد الإمام المجدد أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحَرَّاني، الذي صاول كل العقائد المنحرفة بقلمه وبيانه، وجاء تلاميذه من بعده مجاهدين في هذا الصدد، كابن القيم، وابن كثير، والحافظ الذهبي، والحافظ المزني، وغيرهم، ولكن شوكة التصوف والتخريف، والعقائد الباطلة كانت قد تمكنت من الأمة تمكنًا عظيمًا.

ولكن الله سبحانه، هيأ للأمة في القرن الثاني عشر الهجري، الإمام الجليل محمد بن عبد الوهاب، الذي تتلمذ على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، فقام مصاولًا هذا الباطل الذي عم الآفاق، وحقق الله على يديه ظهور النهضة الإسلامية الحديثة؛ فقد استجاب لدعوته المخلصون في كل أنحاء العالم الإسلامي، وتردد صداها في الهند، والسودان، ومصر، والشام، وكل بلاد الإسلام، ومنذ ذلك الوقت بدأت الحركة الصوفية تتعرى أوراقها شيئًا فشيئًا، وتبدد عقيدةُ التوحيد ظلامَها، وتزيل من نفوس الأمة ترهاتها وخرافاتها.

واليوم -بحمد الله- يكتسح طوفان الحق جيش الباطل، ويعود التصوف مرة أخرى إلى الاندحار والاستتار كما بدأ، وكما هو دائمًا شأن العقائد الباطنية، ولكن ما زالت دولة الصوفية قوية في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي، خاصة في إفريقيا، ودول من آسيا، حيث العربية غير معلومة، وحيث الجهل بالتوحيد، والدين الصحيح ما زال قائمًا، ثم إن رموز التصوف ما زالت موجودة، وأعني برموزه القبور، والمزارات، والشيوخ الضالين، والعقائد الفاسدة، كل ذلك ما زال موجودًا، فهو يحتاج إلى جهد جهيد، وجهاد طويل؛ لاقتلاع آثاره في القلوب، وفي النفوس، والأرض، فهذا هو الواقع القائم إلى اليوم.

 **متى ظهر التصوف؟**

إن الذين كتبوا عن هذا الموضوع، اختلفوا في العصر الذي ظهر فيه هذا الاسم، هل كان في الجاهلية قبل الإسلام، ثم تجدد ظهوره في عصر الإسلام، أو أن هذا الاسم لم يظهر في عهد الإسلام؟ ويمكن توضيح ذلك في استعراض موقف فريقين من العلماء:

**الفريق الأول:** وعلى رأسه أبو الفرج ابن الجوزي، يؤيد الرواية القائلة بأن رجلًا في الجاهلية كان يدعى الغوث بن مُر، نذرت أمه -حيث لم يكن قد عاش لها ولد- أن تعلق برأسه صوفة، أو تجعله ربيط الكعبة، ففعلت، فقيل له: صوفة ،ولولده من بعده، وفي رواية أخرى: أن أم هذا الرجل كانت لا تلد الذكور، فقالت: "لله علي إن ولدت غلامًا لأعبدنه البيت"، فلما ولدته ربطته عند البيت، فأصابه الحر فمرت عليه وقد سقط واسترخى، فقالت: ما صار ابني إلا صوفة، فسمي صوفة".

ويعتبر الإمام ابن الجوزي، أن في هاتين الروايتين دليلًا كافيًا على أن أصل مولد الكلمة كان قبل الإسلام عند عرب الجاهلية، وأن من تعلق بالزهد من المسلمين فيما بعد، وانقطع للعبادة، فقد انتسب إلى صوفة هذا، ويمكن أن نناقش ابن الجوزي في دعواه هذه، ونردها من عدة وجوه:

**الوجه الأول:** إن هذه القبيلة من العرب غير مشهورة، ولا معروفة عند أكثر النُّساكن كما قرر ذلك الإمام ابن تيمية، وقد نوهنا عنه، بل إن غالب من تكلم باسم التصوف، لا يرضى أن يكون مضافًا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام، كما قرر ذلك الشيخ، وهو محق فيه.

**الوجه الثاني:** أن كلا الروايتين إنما تثبتان -إن صحتا- أن امرأة علقت في رقبة طفلها علامة، وهي قطعة من الصوف، أو شبهت ابنها بالصوف، لما رأته منهك القوى غير متماسك؛ ولذلك سمي صوفة، ولا دخل لهذا في ظهور فئة في الإسلام تسمى بالصوفية؛ إذ لم تدل على وجود كلمة صوفية، ولا كلمة صوفي بهذه الصيغة، ولا بهذا المعنى قبل الإسلام.

**الوجه الثالث:** لا يعقل أن يكون المسلمون قد استمدوا مبادئ تصوفهم من عرب الجاهلية، الذين كانوا يتخبطون في ظلمات الجهل، ولا أن يكونوا قد اختاروا شعار الجاهلية، أو أسماء الجاهلية وفضلوها على ما سماهم الله به من طيب الأسماء.

**الفريق الثاني:** إن هذا الاسم حدث في عصر الإسلام، ولكن أفراد هذا الفريق، اختلفوا في فترة ظهوره في الإسلام على قولين:

**القول الأول:** ويزعم أصحابه أن هذا الاسم وجد في القرن الأول من هجرة المصطفى وعلى رأس هؤلاء أبو نصر السراج، صاحب كتاب (اللمع في التصوف)، وقد حاول أن يستدل على ذلك بمشهدين أوردهما في كتابه المذكور:

**المشهد الأول:** أن الحسن البصري -رحمه الله- رأى صوفيًّا في الطواف فعرض عليه شيئًا من المال فلم يأخذه، وكأن السَّراج يريد أن يقول: إن ورود هذه الرواية عن الحسن البصري -رحمه الله- وهو من مواليد عام "عشرين" للهجرة، يدل على وجود التصوف في عهد مبكر من الإسلام، ويُرد على هذه الرواية بأن الحسن البصري -رحمه الله- وإن كان قد ولد عام "عشرين"، إلا أنه عاش حتى عام "مائة وعشرة" هجرية، أي: أنه عاش عشرة أعوام في بداية القرن الثاني الهجري، وليس في أولها، ولا مرجح لأحد الاحتمالين على الآخر.

**المشهد الثاني:** أن سفيان الثوري، قال: "لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء" ولم يبين الإمام أبو نصر السراج وجه الدلالة في هذه الرواية، على أن التصوف وجد في عهد مبكر في الإسلام، بل هي دليل على خلاف مراده؛ فإن سفيان الثوري -رحمه الله- ولد سنة "سبعة وتسعين" من الهجرة، وهذا يدل على أن التقاءه بأبي هاشم الصوفي لا يمكن أن يكون في القرن الأول إطلاقًا، علمًا بأن أبا هاشم الصوفي توفي عام "مائة وخمسين" هجرية، فلا بد أن لقاءهما كان في أثناء المائة الثانية للهجرة، إن صحت هذه الرواية أو تلك بذلك.

**القول الثاني:** أن اسم التصوف ظهر في عصر الإسلام، في بداية القرن الثاني الهجري، وقد ذكر هذا الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وكثير من العلماء، فقال ابن تيمية: "في أثناء المائة الثانية، صاروا يعبرون عن ذلك، أي: عن الزهد بلفظ الصوفي؛ لأن لبس الصوف كثر في الزهاد، ولقد عبر كتاب التراجم للصوفية عن تبنيهم لهذا الرأي تعبيرًا عمليًّا؛ فقد اعتبروا الطبقة الأولى من طبقات الصوفية، هي طبقة الفضيل بن عياض، وذي النون المصري، وإبراهيم بن أدهم، وشقيق البلخي، ونحو هؤلاء ممن كانت وفاتهم في أثناء القرن الثاني وما بعده".

ومما ظهر يتبين لنا أن أكثر الآراء قوة، وأعظمها انتصارًا وأنصارًا، هو القول الثاني للفريق الثاني، الذين قالوا: إن ظهور كلمة تصوف في أثناء المائة الثانية للهجرة، وإن كانوا قد اختلفوا فيمن أطلق عليه لفظ الصوفي أولًا، هل هو جابر بن حيان، أو أبو هاشم الصوفي، أو عبدك الصوفي، باعتبار أنها أطلقت على أشخاص، والذي نرجحه أنها أطلقت على جماعة، وعلى مجموعة من الناس، دون أن تطلَق على فرد من الأفراد، فالحق الذي نميل إليه، أن كلمة صوفي أو صوفية لم تظهر على شخص واحد في البداية، ولكن ظهرت حين كثر لبس الصوف في جماعة من الزهاد، فقيل: إنهم جماعة تصوفوا، أي: لبسوا الصوف فسموا صوفية، وقيل لواحدهم صوفيّ.

**المراجع والمصادر:**

1. **أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، 1389هـ**
2. **عواد بن عبد الله المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها ، الرياض، مكتبة الرشد، 1417هـ**
3. **الدكتور صابر بن عبد الرحمن طعيمة، دراسات في الفرق ، الرياض، مكتبة المعارف، 1408هـ**
4. **عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفَرْق بين الفِرَق ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، المعرفة للطباعة والنشر، 1976م**
5. **محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1395هـ**
6. **علي سامي النشار، نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام ،القاهرة، دار المعارف، 1981م**
7. **عبد الرحمن عميرة، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منه ، بيروت، دار الجيل، 1405 هـ**
8. **مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب ، الدار المصرية اللبنانية، 2004م**
9. **إحسان إلهي ظهير، القاديانية دراسات وتحليل ، الرياض، طبع ونشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، 1404هـ**
10. **أحمد محمود صبحي، في علم الكلام: دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين ، مؤسسة الثقافة الجماعية، 1982م**
11. **عبد القادر بن حبيب الله السندي، التصوف في ميزان البحث والتحقيق ، المدينة المنورة، مكتبة ابن القيم، 1410هـ**
12. **محمد عبد الهادي المصري، أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى ، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1409هـ**
13. **الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، إشراف ومراجعة: مانع الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، 1418هـ**